((الاغتراب النفسي قراءة في شعر ابن الرومي)).

الدكتور/رجب إبراهيم أحمد عوض
الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية
جامعة السلطان عبد الحليم معظم شاه الإسلامية العالمية

المقدمة

لقد اجتمع لابن الرومي من نوائب الدهر، ومتاعب الأيام ما لم يجتمع لغيره من الشعراء من الفقر، وسوء الطالع،واضطراب الأعصاب،وثورة النفس،بل وثورة الناس،وكان شعره تعبيرا عن نفسه أولا،مخالفا لما تعارف عليه الشعراء قبله،فقد قسم ابن الرومي قصائده بينه وبين ممدوحه،يمدحه في قسم،ويخرج همومه في قسم آخر منها.

لقد عاش ابن الرومي اغترابا نفسيا نتيجة عوامل مختلفة، فقد عاش عصرا مضطربا أشد الاضطراب من الناحية السياسية والاقتصادية،والاجتماعية،والعقدية،كان له مردوده في شعره،وجعلت نفسه تتخذ مكانا شرقيا من أهلها،فعاش فترات طويلة قد انفصلت فيها نفسه الحقيقية عن واقعها،فمدح،وهنأ، ورثا.

لقد كان ذا فلسفة خاصة اكتسبها من ثقافات عصره، بيد أنه لم يستطع أن يُلبِسَ الفكر ثياب الفن، ووقع أسيرا في أغلال المعنى الفلسفي دون أن يحكم قياده،فكان المعنى يهرب منه من رحاب الشعر إلى فضاء الفكر،ويجعل من نوازع النفس فضاءات فكرية ونفسية هي أرحب من رحاب المعنى الشعري والفني.

لقد كاد الناس ينسون ابن الرومي بعد موته، ويذهب شعره في خضم بحر النسيان،لولا أن الله قيَّد له من يبعثه، فقام الشيخ محمد شريف سليم بإعداد وشرح مختارات من شعره في جزءين كبيرين،ثم قام الأستاذ كامل الكيلاني بعد ذلك بجمع مختارات أخرى جعلها-كما يقول المازني-ثلاثة أجزاء، في مجلد واحد،جملة صفحاته خمسمائة،فيها قريب من سبعة آلاف بيت، وصدرها العقاد في "[1]عبقرية ابن الرومي،لم يدع فيها شاردة ولا واردة، ولا ترك شيئا لسواه يقوله...حتى صار قصارى أن يترسمه،ويفصل ما أجمل..." إلى أن يقول :"وما بالقليل أن يفوز بذلك من خمل في حياته خمولا منقطع النظير ،في تاريخ الآداب مع وضوح حقه"[2].

ويتناول البحث قضية الاغتراب النفسي عند ابن الرومي من حيث أسبابها ومظاهرها وأثرها في شعره، وقد قسمت البحث إلى:- مقدمة.

- المبحث الأول: ابن الرومي حياته وعصره. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الاغتراب..لغة واصطلاحا.

المطلب الثاني:حياة ابن الرومي وعصره.

- المبحث الثاني: الاغتراب في شعره..أسبابه ومظاهره.وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أسباب الاغتراب.

المطلب الثاني:مظاهر الاغتراب.

---

[1] - حصاد الهشيم،عبد القادر المازني،1999م.طبعة خاصة من دار المعارف لمكتبة الأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب. ص 280.

[2]- السابق.

- الخاتمة يصحبها أهم النتائج التي توصل البحث إليها، متلوة بأهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها البحث.

المبحث الأول: ابن الرومي حياته وعصره. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الاغتراب..لغة واصطلاحا.

تكاد المعاجم العربية قديمها وحديثها، على أن الاغتراب (أو الغَرْبة) معناه البعد والنزوح عن الوطن.قال صاحب"اللسان" الغرب:الذهاب والتنحي عن الناس، وقد غَرَبَ عنا يغرب غربا،وغرب وأغرب..والغربة والغرب:النوى والبعد".[1]

والاغتراب والتغرب كذلك ،تقول منه، تغرَّب،واغترب،وقد غربه الدهر،وغريب بعيد عن وطنه، والجمع غرباء،والأنثى غريبة.

إن هذا يعني أن لكلمة "غرب"معان متعددة منها الحسي والأخر معنوي،وأن الغربة والاغتراب كلها في اللغة العربية بمعنى واحد،وهو الذهاب والتنحي عن الناس.[2]

ونستطيع القول:"إن كل المعاني الفلسفية الحديثة-تقريبا- لمصطلح "الاغتراب"تدور حول محور واحد وهو الانفصال".[3]

أما علماء النفس فيعتبرون الاغتراب سلوكا مَرَضِيّا يعكس موقفا إنسانيا من الذات خاصة، فهو ينطوي على شعور الفرد بانفصاله وانسلاخه عن ذاته.

ولا شك أن الاغتراب يحضر –أيضا- في الأدب والفن، ويدخل في نسيج خيوط بنية الأدباء والفنانين على احتلاف مستوياتهم العلمية.ويحْسُنُ بنا أن نقرَّ بأن كل رائد-مهما كان طابعه- يحوي بذور اغتراب في بنيانه الداخلي، وأيضا كل عمل أدبي أو فني .. لابد أن نعثر على جذور للاغتراب منذ أقدم العصور وحتى الآن، مع التأكيد على أن الاغتراب يميل نحو التضخم والتشعب كلما تقدمنا إلى الأمام، أي إنه يمد جذوره أكثر كلما اقتربنا من العصور الحديثة، وخاصة في مجتمعنا المعاصر".[4]

هذا، ولم تنج الفنون الجميلة كالموسيقى والرسم والتصوير من تأثير مقولة الاغتراب،بل إن الفنان المعاصر يعيش حالة من الاغتراب الشمولي الحاد، وهذا ما صورته التيارات الفنية التي ظهرت في الديار الغربية،حينما عكست الواقع الموبوء، والتجأت إلى خلق دنيا أخرى من الأوهام والهلوسات.

ومن الحيف أن ننكر إسهام الشعر العربي –قديمه وحديثه- في تصوير الاغتراب بمختلف صوره وملامحه،فقد عبَّر شعراء العربية منذ الجاهلية إلى يومنا هذا عن الاغتراب المكاني، والنفسي، والاجتماعي.

وأخيرا.."إن الاغتراب من طبيعة الإنسان،بل يمكن القول – والتوكيد على ذلك- أنه دافع أساسي من دوافعه، وهو يختلف من إنسان لآخر،ومن عصر لآخر، لأنه يتلوَّن بطبيعة صاحبه،وبطبيعة المجتمع بما فيه من مؤسسات سائدة، وبطبيعة العصر،بقيمه وأعرافه، ومعارفه"[5]

المطلب الثاني:حياة ابن الرومي وعصره.

---

[1] - لسان العرب،ابن منظور، دار صادر بيروت.مادة"غرب".

[2] - الغربة والحنين في الشعر الأندلسي ،فاطمة طحطح .ص33.

[3] - الاغتراب في الأدب العبري المعاصر،أحمد حماد،عالم الفكر،مجلد24،ع 1996،3م،ص38.

[4] - حول الاغتراب الكافكاوي، إبراهيم محمود،ص 85 بتصرف.

[5] - حول الاغتراب الكافكاوي، إبراهيم محمود،ص 78.

هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج، ولد في بغداد 221هـ، وكان مولى لعبيد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور الخليفة العباسي،وينتسب إلى الروم من ناحية أبيه،وإلى الفرس من ناحية أمه،وعاش في كنف أخيه الأكبر إثر وفاة والده.[1]

نشأ في بغداد، وكانت حاضرة العلم،فتقلب في العلوم والمعارف حتى استقام له اللسان العربي،مع موهبة شعرية منحها الله له،فغدا شاعرا من شعراء عصره،يمتلك حسا مرهفا،وسعة في التصوير والخيال.

مكانته

ذكره ابن رشيق،فكان يرى أنه "أولى الناس باسم شاعر،لكثرة افتتانه"[2]،ويقدمه المرزباني على البحتري في الهجاء فيقول:"سبق وتفوق ابن الرومي،وبخاصة في فن الهجاء على البحتري الذي قصر عن مداه".[3]

غير أن القاضي الجرجاني لم يكن يرى ابن الرومي بنفس العين التي كان يراه بهاابن رشيق،والمرزباني،فكان رأيه في ابن الرومي صادما،حيث قال:"وقد تجد كثيرا من أصحابك ينتحل تفضيل ابن الرومي،ويُغلُو في تقديمه،ونحن نستقرأ القصيدة من شعره، وهي تناهز المائةأو تربي أو تضعف فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذي يروق أو البيتين".[4]

ولعل هذا الرأي للجرجاني مرده أن منهج ابن الرومي في نسج شعره يدل على طول نَفَسٍ،وترابط الأفكار،وكثرة الاستقصاء لدقائق الأمور،كل هذا بلا تكرير، أو سقط، رغم طول القصيدة الممتد،وقلما يسلم شاعر من ذلك.

نهاية ابن الرومي..بين الموت والقتل

من العجيب أن القدماء يروون في موته قصصا كلها لها علاقة بالطعام ونهم ابن الرومي به،يقول الحصري في زهر الآداب:"وكان ابن الرومي منهوما في المآكل وهي التي قتلته"[5] ابن رشيق يربط بين موت ابن الرومي ونهمه بالطعام وعداوة ابن فراس، فيرى:"ابن فراس من أشد الناس عداوة لابن الرومي، ولهذا سمَّ له لوزنجية فمات".[6]

---

[1]- ينظر في ترجمته:مروج الذهب182/4، 194.تاريخ بغداد12/23-26.النجوم الزاهرة 96/3.

[2]- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة،بيروت،ط رابعة 1974م،ط خامسة 1981م.238/2.

[3]- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء:الإمام أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني،تحقيق علي البجاوي،دار النهضة،مصر،القاهرة 1965م.ص 154 وما بعدها بتصرف

[4]- الوساطة بين المتنبي وخصومه،أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني 54/1،تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي،مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

[5]- زهر الآداب وثمر الألباب،أبو إسحاق علي الحصري القيرواني.تحقيق د.زكي مبارك،زاد في شرحه الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد،نشر مكتبة المحتسب،عمان،دار الجيل،بيروت،ط رابعة 1972م.247/2.

[6]- العمدة 72/1.

ويقرر ابن خلكان:"أن الوزير القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب دسَّ له السم في الطعام ، فلما أحسَّ به الشاعر،فنهض منصرفا،فسأله:إلى أين تذهب؟ فأجاب:إلى الموضع الذي بعثتني إليه،فقال له: سلِّم على والدي! فقال: ما طريقي إلى النار".[1]

والحقيقة أن رواية ابن خلكان فيها نظر،إذ لا معنى لأن يقول القاسم له:"سلم على والدي" لأن والد القاسم توفي بعد ابن الرومي بعدة سنوات.[2] بل إن العقاد في كتابه:"ابن الرومي..حياته وشعره" يورد أن والد القاسم أبو عبيد الله هو الذي دسَّ له السم".[3]

وربما أن سبب موته" هو علة سوداوية تحركت عليه فغيرت منه"[4] ومات ميتة طبيعية بسبب الأسقام التي أصيب بها.وله في الرمق الأخير من حياته أبيات من الخفيف:

أشربُ الماءَ إذا ما التهبَتْ نار أحشائي لإطفاء اللَّهَبْ
فأَراهُ زائداً في حُرقتي فكأن الماء للنار حَطَبْ[5]

وكقوله أيضا من الخفيف:

إن بَحْثَ الطَّبيبِ عنْ داءِ ذي الدَّا ءِ لَأُسُّ الشِّفاءِ قبل الشفاءِ[6]

شيء حسن أن يبحث الطبيب عن دواء لداء لكن تتبقى في النهاية كلمة القدر:

غلِط الطبيب عليَّ غلطةَ مُوردٍ عجزتْ مَحالتُه عن الإصدارِ
والناس يَلحَون الطبيب وإنما خطأُ الطبيب إصابةُ المقدار[7]

وتوفي ابن الرومي على الراجح سنة مائتين وأربع وثمانين.

ملامح عصره

في حديثه عن عصر ابن الرومي يذكر الأستاذ العقاد مستعيرا قول شارلس ديكنز في بداية قصة المدينتين في معرض حديثه عن الثورة الفرنسية:"كان أحسن الأزمان،وكان أسوأ الأزمان،كان عصر الحكمة،وكان عصر الجهالة،كان عهد اليقين والإيمان،وكان عهد الحيرة والشكوك،كان أوان النور،وكان أوان الظلام،كان ربيع الرجاء،وكان زمهرير القنوط،بين أيدينا كل شيء، وليس بين أيدينا شيء قط، وسبيلنا جميعا إلى سماء عليين، وسبيلنا جميعا إلى قرار الجحيم، تلك أيام كأيامنا هذه التي يوصينا الصاخبون من ثقاتها أن نأخذها على علاتها،وألا نذكرها بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات ومن آفات".

هو وصف صادق لكل عصر من العصور في تواريخ الانتقال والاضطراب، ومن تلك العصور،القرن الثالث للهجرة في دولة الإسلام الشرقية، وهو القرن الذي لا يوصف في

---

[1]- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي،تحقيق: إحسان عباس،الناشر: دار صادر – بيروت. 351/1 بتصرف.

[2]- توفي عام 288ه،بينما توفي ابن الرومي 283ه،أو 284ه.

[3]- ابن الرومي، حياته من شعره ص 263.مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.القاهرة 2012م.

[4]- معجم الشعراء،للإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران:المرزباني.تحقيق عبد الستار أحمد فراج-دار الكتب العربية،ط 1960، ص 289.

[5]- ديوان ابن الرومي350/1 من الخفيف، شرح الأستاذ أحمد حسن بسج،دار الكتب العلمية،لبنان بيروت.ط الثالثة،2002م.

[6]- ديوان ابن الرومي 65/1.

[7]- السابق.

جملته إلا بمثل هذا الوصف الغامض الجلي الذي كأنما يصف لك عصرين مختلفين،لا عصرا واحدا متناسق الأوضاع والأحوال؛لأنه في الحقيقة عصران مختلفان، أو عدة عصور مختلفات،وإن اجتمعت في نطاق واحد من الزمان"[1]

عاش ابن الرومي حياته في العراق،وعاصر من خلفاء الدولة العباسية سبعة هم:المتوكل على الله،المستنصر بالله،المستعين بالله، المعتز، المهتدي،المعتمد،والمعتضد.

ولي المتوكل الخلافة سنة 232هـ واستمر فيها حتى سنة 247هـ، ووصف عصره بالرفاهية، ورغد العيش.. وما لبث هذا أن تغير بعد أن قتله ابنه المستنصر ليتولى الخلافة ستة أشهر، حيث مات بعدها،وخلفه المستعين الذي قتل بعد ان تولى الخلافة بين سنة 248 – 252هـ،ثم تولى المعتز وما لبث الأتراك أن خلعوه وولوا مكانه المهتدي،وكان أقوى شخصية من أخيه ..فأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر..وكان صالحا غير أن ذلك لم يعجب الأتراك، فاستطالوا خلافته، وسئموا أيامه، فما زالوا به حتى قتلوه.[2]

وتولى الخلافة المعتمد على الله سنة 256 هـ، وكان عصره حافلا بالأحداث الدامية مثل ثورة الزنج التي ألهمت ابن الرومي قصيدته التي يقول في بعضها واصفا:

كم أخٍ قد رأى أخاهُ صريعاً ترِبَ الخَدِّ بينَ صَرْعى كرامِ
كم أَبٍ قد رأى عزيزَ بنيه وهْوَ يُعلَى بصارمٍ صمصام
كم مُفدّىً في أهلِهِ أسْلمُوه حين لم يحْمِه هنالك حامي
كم رضيع هناكَ قد فطموه بشبا السيف قبل حينِ الفطام
كم فتاةٍ بخاتِمِ الله بِكرٍ فضحوها جَهْراً بغير اكتتام[3]

ثم يصف البصرة التي تحولت إلى أنقاض فيقول:

أين ضوضاءُ ذلك الخلقِ فيها أين أسواقُها ذواتُ الزِّحام
أين فُلْكٌ فيها وفُلْكٌ إليها مُنشآتٌ في البحر كالأعلام
أين تلك القصورُ والدورُ فيها أين ذاكَ البنيانُ ذو الإحكام
بدِّلتْ تِلكُمُ القصورِ تِلالا من رمادٍ ومن تُراب رُكامِ[4]

إذن..عصر المعتمد وأيامه أيام حروب وفتن،وكان المعتمد فيها ضعيفا، فتمكن أخوه الموفق من انتزاع السلطات منه،ولم يبق له الاسم فقط،غير أن موت الموفق أعاد إليه جزءا منها،بيد أن ابن الموفق كان طموحا فانتزع من عمه ولاية العهد، وحين مات عمه عُينَ خليفة سنة 279ه،وقد وصفه ابن الأثير بقوله:"كان شهما شجاعا مقداما، وكان ذا عزم،وكان فيه شح، زكان عفيفا، مهيبا عند أصحابه، يتقون سطوته،ويكفون عن الظلم خوفا منه"[5]

---

[1]- ابن الرومي حياته من شعره ص13.
[2]- مروج الذهب ومعادن الجوهر.المسعودي- القاهرة 1346هـ. 413/2
[3]- مروج الذهب413/2.
[4]- ديوان ابن الرومي 2377/6، 2378.
[5]- الكامل في التاريخ ،المبرد،ط بولاق1274هـ. 183/7،

واستمر المعتضد في الخلافة حتى وفاته سنة 289هـ،وتولى الخلافة ابنه المكتفي بالله..تلك كانت الحقبة التاريخية التي عاشها ابن الرومي، أهم سماتها كثرة الدسائس والخلافات والصراعات التي جعلت منه عصرا مضطربا سياسيا.

أما حالة العصر الاجتماعية فكانت كلها نفاق، وغش، وتملق، ومجون لأصحاب القول والصول من شرطة، وكتاب، ووزراء،وتجار.

لقد شهد العصر العباسي تطورات حضارية وعمرانية،لا حتكاكه بالأمم الأخرى،فاتسعت معارفه، وزادت مشاربه،وعلت ثقافته،مما أسهم في التطور الاجتماعي، والمستجدات الحديثة من الأمم الأخرى كالفرس والهنود وغيرهم.

وعليه فقد تهيأ للعصر العباسي مدنية متحضرة أسهمت في إيجاد وإبداع شعري جديد،استطاع أن يحتوي تلك التطورات ويعبر عنها.ومن المحتمل أن تحدث هذه التطورات تميزا، وتفاوتا طبقيا في المجتمع العباسي،فكان هناك تناقض كبير في مستوى المعيشة، فعاش الحكام حياة مترفهة لاهية،بينما عاشت الطبقة الفقيرة حياة الفقر والقلق الاجتماعي،فنتج عن هذا التمايز ثورات وخركات مثل ثورة الزنوج، وحركة القرامطة التي رفضت الواقع المرير، وكان سيصبح لها شأن آخر لولا اعتمادهم على سفك الدماء والقتل.[1]

ولما كان ابن الرومي واحدا من أولئك الشعراء الذين عاشوا ذاك الواقع المضطرب، وانصراف الخلفاء عن معالجة هذا الواقع إلى اللهو، والترف،فاختار لنفسه نغمة شعرية خاصة فميزته شعريا وصارت سجية فيه، وخصلة عنده.

تلك النغمة هي "السخرية" فكان يستعين بها لتكون ملاذه حين يريد الهروب والفرار من هذا الواقع،مما سأفصِّل فيه القول في حينه.ويعلق العقاد بقوله:"إذن تلخصت الحالة السياسية في سوء الظن،فقد تتلخص الحالة الاجتماعية في اغتنام الفرصة، وإن هذا وذاك في الحالتين لكالشيء وظله، أو كالصوت وصداه"[2]

أما من الناحية الفكرية فلم يكن العصر عصر العلوم القديمة وحدها،لأن العلوم الحديثة المنقولة،والموضوعة أصبحت شرطا في الكاتب والأديب،لا تتم بغيرها كتابته وأدبه.

---

[1] - اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري،ص49،قحطان رشيد التميمي،دار المسيرة،بيروت.بتصرف.

[2] ابن الرومي حياته من شعره ص 26.

المبحث الثاني :أسباب الاغتراب عند ابن الرومي ومظاهره،وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أسباب الاغتراب:

هناك مؤثرات تركت صداها في شعر ابن الرومي، وساهمت في بناء غربته،منها ما يتعلق ببيئته وعصره، ومنها ما يتعلق بشخصيته جسما ونفسا.ويجب الاعتراف بأن هذه المؤثرات، وتلك العوامل متداخلة ومتشابكة إلى الحد الذي يصعب فيه الفصل بينها، لكنَّ طبيعة البحث تقتضي الفصل بينها؛لبيان أثر كل مؤثر على حدة، وإن تشابهت آثارها، ومظاهرها.

أولا:بيئته وعصره:

عاش ابن الرومي في عصر مضطرب أشد الاضطراب ، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وعقائدياً، كما عاش في بيئة أسرية منكوبة ، بل إن المصائب أحاطت بها من كل حدب وصوب.

"وكان لابد لهذا الاضطراب أن ينعكس في شعره ، أو أن يترك آثاره فيه ، وأن يستجيب استجابات مختلفة للواقع الذي عاشه في مجتمعه، وقد تجلت هذه الاستجابات في الإكثار من أشعار المناسبات كالمديح والتهاني والمراثي ذات الطابع الرسمي، وفي الاستجابة للتطور العقلي الذي شهده العصر العباسي الثاني ، وفي ظهور مفردات أعجمية في شعره ، وفي التعبير عن قضايا خاصة به"[1].

1- شعر المناسبات

تفاعل ابن الرومي مع أحداث عصره المختلفة وشارك فيها من خلال رصده لها وتعبيره عن مشاعره تجاهها ، وهي مشاعر غير صادقة أملتها طبيعة مهنته بوصفه شاعراً مداحاً يعيش على مهنة الشعر وما فيها من مديح وتهانٍ ورثاء؛ فقد شارك في أحداث عصره مهنئاً بالخلافة وبالوزارة وبولاية العهد، وبالقدوم من السفر ، والشفاء من المرض، وبناء الدُّور ، وبالأعياد المختلفة، وبالزفاف والولادة والخِتان، وأشاد بالأعمال الإيجابية للخلفاء ووزرائهم وقوادهم، كالقضاء على الخارجين على الخلافة، والانتصار على الروم واستعادة ما اغتصبوه من بلاد المسلمين ، والإصلاحات الإدارية والاقتصادية،كما رثى من مات من أقرباء الخلفاء والوزراء وغيرهم.

وهو بطبيعة الحال يقصد من هذا الشعر التكسب والمجاملة ؛ لذا نجد شعره ضعيفًا لا يرقي إلى تلك الأشعار التي يعبر فيها عن نفسه.

لكن هناك مناسبة نجد ابن الرومي يعبر عنها تعبيرًا صادقًا وهي ثورة الزنج ؛ والسبب في ذلك أن هذه المناسبة عامة تأثر فيها المسلمون أجمعون ، لذا نجده يمدح المُوَفَّق أخا المعتمد الذي استطاع القضاء عليها بعد ما استمرت خمسة عشر عامًا.

---

[1]- المؤثرات البيئية والشخصية في شعر ابن الرومي،محمد عبد القادر أشقر،التراث العربي-سوريا،مجلد 25،ع 100، 99، سنة النشر 2005.ص 34.

فتأثر ابن الرومي كثيرًا لما أصاب الناس ولما أصاب مدينة البصرة من خراب ، وصوّر ما فعله الزنج بالناس من تعذيب وإذلال ، وما ألحقوه بالبصرة من تخريب في قصيدة طويلة هي من أجمل ما قيل في رثاء البلدان ؛ لأن ابن الرومي رثاها من خلال إحساسه بالفاجعة التي أصابتها وأصابت أهلها ، ومن خلال خوفه من الشر والموت والدمار .

وقد صوّر في هذه القصيدة خراب المدينة وتشرد أهلها ، وما لحقهم من شر ، وتأسّى على تلك المدينة العظيمة وتذكر ماضيها الزاهر يقول :

ذادَ عن مُقْلِتي لذيذَ المنامِ شُغلها عنهُ بالدموعِ السجامِ
أيُّ نومٍ من بعد ما حل بالبصْ رَةِ من تلكمُ الهنَاتِ العظام
أيُّ نومٍ من بعد ما انتهك الزّنْ جُ جهاراً محارمَ الإسلام[1]

وينتقل إلى الحديث عما أصاب الناس على أيدي الزنج من قتل وتشريد، ويفصّل في كل مشهد على عادته في التفصيل ؛ فقد باغت الزنج أهل البصرة وهم نيام ، وأعملوا فيهم السيف، ولم يراعوا كبيراً ولا صغيراً ، ولا رجلاً ولا امرأة، بل إنهم بالغوا في إلحاق الأذى بالناس؛ فاغتصبوا العذارى علانية ، وفضحوا النساء المصونات المحجبات ، وفرقوا بين أفراد الأسرة الواحدة بين قتل وسَبْيٍ واغتصاب.

ومن هنا يكون مديحه للموفق عِرفانًا بالفضل وإحقاقًا للحق ، وليس مديح مجاملة أو تكسب ، فقد رأى ابن الرومي في الموفق فارساً مغواراً لا يخاف الأعداء مهما بلغوا من قوة ، وهو رجل ترك نعيم العيش ورغده والخمر والنساء لغيره ، وسَمَتْ هِمَّتُهُ إلى قيادة الجيش وإعداده للفتك بأعداء الدين ، لذا انتصر عليهم وشتت شملهم.

وقد كان الموفق كما قال ابن الرومي تماماً فارساً مغواراً حمل هَمَّ الخلافة، واستطاع أن يقضي على ثورة الزنج وعلى تسلط القواد الأتراك، فلم يجرؤوا على ارتكاب المظالم والاستبداد بالسلطة ما دام حياً .

وهناك أمثلة كثيرة تبين اهتمام ابن الرومي بالمناسبات مثل رثاءه لأبي الحسين يحيى بن عمر بن حسين بن علي ، ومدحه لـ أحمد بن ثوابه ، وإسماعيل بن بلبل وزير المعتمد ، وأمير خراسان ، وهجاءه لـ صاعد بن مخلد ، وأبي حفص الوراق .

2- <u>ثقافة العصر:</u>

أغلب الظن أن ابن الرومي كان معتزليا،حيث وقف على أصوله،وقواعده،وكان طبيعيا أن يتخلل ذلك شعره، بيد أن ابن الرومي لم يستطع أن يُلبس الفكر ثياب الفن،ووقع في براثن المعنى الفلسفي دون أن يحكم قياده،فكان المعنى يهرب منه من رحاب الشعر إلى فضاء الفكر،ونوازع النفس إلى فضاءات فكرية ونفسية هي أرحب من رحاب المعنى الشعري والفني.ومن ذلك ما يمدح به معاتبا:

كُنْتَ ممنْ يَرى التشيعَ لكنْ مِلْتَ في حاجتي إلى الإرجاءِ[2]

فهو يقرر انصراف ممدوحه عنه،وتنكره له، فلم يقض حاجته،ولم يعطه رغبته، لكنه آثر أن يخفي هذا المعنى خلف ستار مصطلحين سياسيين دينيين هما:التشيع بمعناه السياسي والديني

[1] - ابن الرومي ديوانه2377/6.
[2] - ديوان ابن الرومي71/1.

الذيْن يؤكدان أحقية علي بن ابي طالب –رضي الله عنه- وأبنائه في الخلافة.ثم مصطلح الإرجاء:أي لم يكفروا أحدا من أهل السنة والشيعة وغيرهم،وإنما أرجئوا الأمر كله إلى الله لينظر فيه.

إن ابن الرومي لا يعرض المعنى دون تعليل له،ولا مبرر لمجيئه، فلا يعتمد على ترهات، وأحاديث كاذبة،إنما يلجأ إلى التعليل والقياس فنراه يعرض لقضية الصديق وغدره بطريقة منطقية ترتكز على القياس المعتمد على المقدمات والنتائج متأثرا في ذلك بثقافته المنطقية،فيقول في هذا:

عدوُّكَ من صديقك مستفادٌ فلا تستكثرنَّ من الصِّحابَ

فإن الداءَ أكثرَ ما تـــــــــــــــــراهُ يحولُ من الطعام أو الشرابِ[1]

قاس الصديق على الطعام، والغدر على الدء،فوجد أن الداء يكون خطيرا عندما يكون داخل الطعام لا نراه،لأننا لو رأيناه ما أكلناه، وكذلك الصديق الذي يتحول إلى عدو فيأتي خيره من حيث لا نتوقع خطره.لقد بلغ ابن الرومي من هذه الثقافات رصيدا ضخما، حتى قيل:"إن الشعر كان أقل أدواته، وكان لا بد لتلك الثقافة من أن تظهر في شعره وتتجلى فيه.

وثقافته الواسعة المتنوعة ، وقدرته على الجدل والاحتجاج جعلتاه يقف عند المعنى الواحد المألوف فيفصل القول فيه مادحاً ، ثم يذمه مفصلاً في ذكر عيوبه ، دون أن يخلَّ بالمعنى في كلتا الحالتين.ومنها استقصاء المعاني ، فثقافة ابن الرومي الواسعة وقدرته على الجدل والحجاج قادته إلى تقصي المعاني واعتصارها اعتصاراً شديداً لا يبقى فيه زيادة لمستزيد ، مع المحافظة على الوحدة العضوية فيها ، فكل بيت يرتبط ـ غالباً ـ بأخيه من قبل ومن بعد ؛ لأن المعنى لا يكتمل إلا إذا قرأنا ما قبله وما بعده ، فالمعاني عنده متولد بعضها من بعض ، ولا سبيل إلى الفصل بينها في كثير من الأحيان ؛ وهذا سبب من أهم أسباب إطالة القصائد في شعره.

وهذا التقصي واضح كل الوضوح في شعره ، لا تكاد تخلو قصيدة منه ، فالشيب مثلاً موضوع تكلم فيه الشعراء كثيراً منذ الجاهلية ، لكن ابن الرومي لم يترك معنى يمكن أن يقال في الشباب والمشيب إلا أتى به ، من خلال تفصيل زائد يعتصر فيه المعنى ولا يترك فيه شيئاً.

من ذلك قوله في رثاء شبابه ، وقد جعله مقدمة لقصيدة مدحية من مئة وخمسة وسبعين بيتاً، منها سبعون بيتاً في رثاء الشباب والتفجع عليه ، وفي هذه الأبيات السبعين يكرر عبارة (يُذَكِّرني الشبابَ...) ثماني مرات ؛ فمرة يذَكِّره الشبابَ عطشُه الطويل إلى رضاب النساء الجميلات فيفصّل القول في ذلك ، ومرة أخرى يذكّره الشبابَ انصرافُ النساء عنه لشيبه،ومرة ثالثة يذكّره الشبابَ ما فعلته أحداق النساء بقلبه ، وهكذا قبل أن يصل إلى المديح فيقول:

يذكِّرني الشبابَ صَدىً طويلٌ إلى بَرَدِ الثنايا والرُّضابِ

وشُحَّ الغانِياتِ عليهِ إلّا عن ابن شَبيبةٍ جَوْنِ الغُـــــرابِ

فإن سقَّيْنَني صَرَّدْن شُربي ولم يكُ عن هوىً بل عن خلابِ

[1]- ديوان ابن الرومي241/6.

يُذكِّـــــــــــــرني الشبابَ هوانُ عَتبي وصدُّ الغانيات لدى عتابي[1]

3- قضاياه ومشكلاته:

التفت ابن الرومي إلى أحواله كثيراً وتأملها وعبّر عنها في شعره ، مبيناً ما لحقه من ظلم وغَبْنٍ على أيدي أبناء مجتمعه ، أو على أيدي الطبيعة التي زادت في مصائبه ونُوَبِهِ ، فقد أشار إلى زرعه الذي قضى عليه الجراد ، وإلى ممتلكاته التي أتى عليها الحريق ، كما أشار إلى محاولات عدة لاغتصاب ممتلكاته ، مرة على يد أحد المتسلطين ، ومرة على يد إحدى النساء ذوات اليد الطولى في الدولة.

وهذا الشعر يضيء جوانب كثيرة في حياة ابن الرومي ، ويساعد في الكشف عن كثير من أخباره التي ضاعت عبر الزمن ، فتغدو أشعاره عندئذ وثيقة تاريخية لا تقل أهمية عما جاء به المؤرخون من أخبار عن ذلك العصر المضطرب.فقد أتى الجراد على زرعه فقضى عليه ، فلم يجد ابن الرومي إلا ممدوحه يستعطفه على ما أصابه من أضرار فيقول:

ليَ زرع أتى عليه الجرادُ عادني مذ رُزئتُه العُوّادُ

كنت أرجو حصاده فأتاه قبل أن يبلغ الحصادَ حصادُ[2]

ثم جاء الحريق فقضى على ما بقي من أملاكه:

وبعدُ فإن عُذري في قُصُوري عنِ البابِ المُحَجَّبِ ذي البَهاءِ

حُدوثُ حَوادثٍ منها حريقٌ تَحَيَّفَ ما جَمَعَتُ مِنَ الثَّراء

أُعــاني ضَيْعَةً مازلتُ فـيها بِحَـمْدِ اللهِ قِدْمـــــاً في عَنـاء[3]

ويقول ابن الرومي يباهي بأصله الرومي أو اليوناني من جهة أبيه، وبأصله الفارسي الساساني من جهة أمه ، مشيراً إلى أنه سيصل إلى الأمجاد التي وصل إليها أجداده فيقول:

إنْ لم أَزُرْ مَلِكَاً أُشْجِي الخُطوبَ به فلم يَلِدْنيْ أبو الأملاكِ يونانُ

بل إنْ تَعَدَّتْ فلم أُحْسِنُ سِياسَتَها فلم يَلِدْنيْ أبو السُّوَّاسِ ساسانُ[4]

ثم يرى أن الروم أهل أمجاد وقوة وحكمة ، وأنه وقومه لا يرون وجوههم في المرايا كالنساء ، وإنما يرونها في صفحات السيوف البيض القاطعة فيقول:

ونحن بنو اليـونانِ قومٌ لنا حِجاً ومَجْدٌ وعِيْدانٌ صِـلابُ المَـعاجِمِ

وحِلْمٌ كأركانِ الجبالِ رَزانَـةً وجَـهْلٌ تَفادَى منه جِنُّ الصّـَرائِم

وما تتراءى في المَرايا وجوهُنا بل في صفاحِ المُرْهَفاتِ الصَّوارم[5]

4- شكله الخارجي:

كان ابن الرومي لا يريح العين التي تنظر إليه،بل إن العيون ترى منه منظرا غير سار،فقد كان مختل الأعصاب، يدور حول نفسه وكأنه يغربل،مقوس الظهر،شاحب اللون، يبدو عليه الوجوم والحيرة والذعر والتوجس، بصره ضعيف، وكذلك سمعه، متسخ الثياب، يتناول الطعام بشره لافت للنظر ، من غير مراعاة لآداب المؤاكلة، حتى إن مؤاكليه كانوا يتضايقون

---

[1]- ديوان ابن الرومي 257/1.

[2] - السابق 667/2.

[3] - ديوان ابن الرومي 56/1-57.

[4] - ديوان ابن الرومي2425/6.

[5]- السابق 2272/6.

من طريقة أكله،ومن نثره لبصاقه في الطعام.وهذه الصفات كلها تخرجه من دائرة الندماء المرغوب فيهم في القصور والمجالس.وأن يكون الشاعر نديما فهذا يعني أنه قطع نصف الطريق إلى قلب الممدوح، والنصف الآخرسيقطعه بشعره فيه، وآداب المنادمة كان حديث الناس على مختلف طبقاتهم.

ولقد وصف ابن الرومي جسمه ونفسه بكل ما فيهما من عيوب وأوجاع ومآخذ ، وأسرف في ذلك الوصف حتى لم يستطع أحد من الشعراء غيره اللحاق به في هذا المجال ، بل إن معظم شعره يمكن أن يُحمل على هذا الوصف.

وثمة نماذج شعرية كثيرة له في وصف جسده بما فيه من علل وعيوب ، ونفسه بما فيها من مخاوف وأوهام وظنون ، لكنني سأقف عند شاهد واحد هاهنا يصور فيه ابن الرومي جملة من المصائب التي نزلت به في جسده وفي نفسه ، وهذه المصائب هي التي ركز عليها في شعره أكثر من غيرها ، وفصل القول فيها.

كقوله يمدح الوزير القاسم بن عبيد الله ويعاتبه ، في قصيدة تتألف من مئتين وستة عشر بيتاً ، ثلثاها في تصوير سوء حاله فيقول :

أنا مَولاكَ أنت أَعْتَقْتَ رِقّي ... بعدما خِفْتُ حالةً نَكْراءَ
فَعَلامَ انصرافُ وجهِكَ عني ... وتَنَاسيْكَ حاجتي إلْغاء
أنا عارٍ مِنْ كلِّ شيءٍ سوى فَضْـ ... ـلِكَ لا زلْتَ كِسْوَةً وغِطاء
أنا مَنْ خَفَّ واسْتَدَقَّ فما ... يُثْـ ـقِلُ أرضاً ولا يَسُدَّ فضاء
أنا لَيْثُ اللُّيوثِ نَفْساً وإنْ ... كُنْـ ـتُ بجسمي ضَئِيْلَةً رَقْشاء
لستُ باللُّقْطَةِ الخَسِيْسَةِ فاعرِف ... ليَ قَدْري واسألْ به الفُهَماء
أنا ذاك الذي سَقَتْهُ يَدُ ... السُّقْـ ـمِ كُؤوساً مِنَ المُرَارِ رِوَاء
ورأيتُ الحِمامَ في الصُّوَرِ الشُّنْـ ... ـعِ وكانتْ لولا القضاءُ قَضاء
ورَماهُ الزمــانُ في شُقَّةِ النَّفْـ ... ـسِ فَأَصْمَى فُـؤَادَهُ إصْماء
وابتلاهُ بالعُسْرِ في ذاكَ والوَحْـ ... ـشَةِ حتى أَمَـلَّ منه البَلاء
وثَكِلْتُ الشبابَ بعد رَضَاعٍ ... كان قبلَ الغِذاءِ قِدْماً غِذاء
كلُّ هذا لَقِيْتَهُ فَأَبَتْ نَفْـ ... ـسِيَ إلاَّ تَعَـزُّزاً لا اخْتِيَاء
وأَرى ذِلَّتـي تُرِيْكَ هَوَاني ... ودُنُوّي يَزيدُنـي إقْصــاء[1]

إن هذه الأبيات تصور حقاً حال ابن الرومي تمام التصوير ، وتعبر عما يحسه من هموم وعذاب في جسده وفي نفسه ، وقد توجه بهذه الأبيات إلى ممدوحه الذي وصفه بأنه سيده ومالك أمره الذي سيقضي له حوائجه ، ثم يشير إلى أن ضعف بنيته لا يؤثر في همته وشجاعة نفسه وإبائه ، وأنه ذو أصل عريق، وليس لقيطاً لا يُعرف والدُه أو أصله، وهو الذي تكالبت عليه الأمراض والعلل حتى طحنت جسده ، وهو يكره الأشكال القبيحة ويراها كالموت الذي يكرهه ولا يحب لقاءه ، وهو فوق كل ذلك مُعْسِرٌ وحيد في حياته ، فقدَ الشباب في سن مبكرة . لكن كل ما أصابه لم يجعل ممدوحه يَحِنُّ عليه أو يقدّر سوء حاله ، بل ظن

[1] - ديوان ابن الرومي 1/82- 92.

أن ما به من تذلل وخضوع له هو مِنْ هَوانِ نفسه،فما زاده ذلك التذلل إلاَّ إبعاداً له عن مُجالسه وتنكراً له.
وهذه المعاني تصور ما أصاب ابن الرومي في حياته ، وإن كان فيها بعض المبالغة، لكن هذه المبالغة تخفي خلفها حقيقة ما أصابه.
وقد أثرت هذه الأوضاع التي ذكرها ابن الرومي في شعره كثيراً ، لكن تأثيرها لم يكن واحداً ، بل أخذ منحنيين اثنين :- أولهما التعبير عن هذه الأوضاع تعبيراً حقيقياً من خلال مئات القصائد والمقطوعات التي تدور في معظمها حول هذه المعاني، وثانيهما تجاوز هذه المعاني والبحث عن معانٍ مناقضة لها على سبيل التعويض، فادعى أشياء لم تكن فيه ، وصور نفسه بصورة بعيدة عما هي عليه ، كما حوّل ضعف بنيته إلى قوة مبالَغ فيها ، ولم يقف عند هذا الحد بل أثرت أحواله الجسدية والنفسية في طبيعة شعره أيضاً.

5- مظاهر شخصيته:

يوصف أخلاق ابن الرومي« بأنَّه دقيق الحس،عصبي المزاج،تغلب عليه السوداء ،فيثور، ويشتد غضبه ويسلط لسانه إذا عبث به عابث،ولكن سريع الرضى،صفوح إذا استرضى. وكان يحب الحياة و ينتعشها مع ما لقي فيها من بؤس وشقاء والحياة عند لذة يتطلبها و يستمتع بها و اللذة عند شهوة إلى الجمال يتعبه أينما بدأ له فيستعذبه في وجوده الملاح، و في أصوات المغنين و القيان، و في الطبيعة و ما عليها من صور و ألوان و اللذة عند شهوة إلى المآدب،فهو منهوم لا يشبع من طعام و فواكه و شراب و طلبه لهذه الملذات على فقره و حرمانه،جعله يحسدكل ذي نعمة، فيتمناها لنفسه،ويستكثرها في صاحبها وجعله يلحف في السؤال يعاقب و يتذلل حتى يتبغض. وكان على حبه للتكسب يجبن عن ادراك رزقه، فقد يدعوه بعض الأمراء فما يجرؤ أن يصير إليه لأنه يخشي الأسفار ويخفيه البّر والصيف والشتاء. فهو موسوس،ضعيف العقل، متشائم، متطير. ومن صفاته الحسنة أنَّه كان صادق المودة لأصحابة،محباً لأولاده و أهله عطوفاً على الفقراء و المساكين"[1]

6- <u>تشاؤمه وتناقضه:</u>

كان على بن العباس الرومي «مُفرِط الطَّيرَة، شديد الغلوّ فيها. وقد أكثر العرب من ذكر الطَّيَرة، والزَّجرِ،كانت تقتدى بذلك و تجري على حكمه ،حتى ورد النَّهي في سنة رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال: لا عَدوَى ولاطِيَرة. أيضاً إنّ النبي صلى الله عليه وسلم يُحِبُّ الفأل ويُكرِه الطَّيَرة " إنه كان يسرف في الطيرة،حتى كان ذلك يؤثر في حياته ومزاجه تأثيراً شديداً،و كان يضطربه إلى أن يلزم بيته أياماً لايخرج منه.[2] .و من مظاهر تشاؤمه: «فقد كانت الطيرة تجسيداً لموقفه العام من الحياة،ولعجزه من الإيمان بجدواها وتعلقها ونظامها، فعينٌ حولاء، أو يدٌ مشلولة،أم قدم عرجاء،إنَّما هي رمز للنقص والعاهة في العالم وهي تطالعه،إنّما تنذره بأنّ خطباً ما يسلم به أو أنَّه سيصاب بضرب من ضروب النقص و الخسارة. لأنَّها هي بالذات تولّدت عنهما وحيثما حلّت فإنَّها تمهئ لحلولها وهكذا فإنَّ

[1] - أدباء العرب،بطرس البستاني، ج3، ص 242، 241.
[2] - ابن الرومي (طائر غرّد خارج سر به)، عاصم جنيدي،الطبعة الأولى،دار الميسرة ،بيروت، ص16،بتصرف.

الوجودكان بالنسبة لإبن الرومي،رهينة العاهة والمصيبة،تراود أنَّه،تطيفان به وتطالعانه،فجأة في كلّ مظهر أو لفظٍ أو حركة.[1]

ولعَّل شخصية لم تجتمع لها طائفة من المتناقضات النفسية كشخصيته ابن الرومي«فهو رجل غريب الأطوار،لا يستقر على حالة واحدة من حالات النفس المستقره الثابته. كما تراه يمدح اليوم إنساناً ثم لا يلبث أن يذَّمه غداً، و تراه يمدح هذا الزهر ثم لا ينفك أن يذمه بعد اليوم.كما كان الشعور بالخوف،صفة ملازمة لحياة ابن الرومي الذي يصل به الحياءُ إلى الدرجة التي تمنعه حتى من تنشق الهواء النقي.

7- الحسد والحقد:

هما من أوصاف ابن الرومي في كتب الأدب. و لكن ليس الحسد و الحقد وصفين متلازمين لابن الرومي و لا يعتقد عباس محمود العقاد في كتابه مثل هذه الصفات وينكر صفاته و يقول:«و أجهل الناس بالطباع الانسانية من يصف رجلاً كابن الرومي بالحسد والضنيعة لأنَّه كان يألم الانسان لأنَّه محروم مذوذ عن النعم و يتذوقها و يعرف معنى المتعة بها،ولا أن يرى مصيباً أو مخطفئاً في رأية أنه أجدر بتلك النعم ممن لا يحبسهم انداده في الفضل والذكاء وأقرانه في المناقب و المآثرة،كلا ليس هذا هو الحسد المذموم في ردي الصفات،وإنَّما الحسد المذموم هو خلق كرهة يبتلى به المرء فلا يطيق النعمة عند غيره و أن كانت عنده ولا يستريح إلى شعور الناس بالسعادة لانقطاع ما بينه وبينهم من رحم العطف والمشاركة في الامزاج و الآلام. فالحسد نضوب في العاطفة وابن الرومي أبعد الناس عن نضوب العاطفة"[2]

ويؤكد العقاد: "كان ابن الرومي ساخطاً و يكن حاقداً والبون بعيد بين السخط والحقد وإنَّ التسبت أعراض هذين الخلقين عن طلاب الظواهر،فهما خلقان متباينان وقد يكونان في بعض الأحيان متناقضين،فيسخط الانسان بل يذوم في قلبه من الحقدأثر،وقد تكون كثرة سخطه لكثرة استجابته للمؤثرات الجديدة الطارئة التي تتعاقب على حسد،أي لقلة حقدة و قلة إصراره على البغض القديم".[3]

8- آراؤه في المجتمع و الحياة:

ويمكننا أن نشاهد في نفسيته نقمة على المجتمع الَّذي عاش فيه ويعبّر عنها بقصائده فقد رأى غيره من الشعراء والأدباء و الناس، ممّن لايتحلون بأية فضيلة، يحصلون على المكانة العالية،والأموال الوفيرة، و الشهرة الواسعة، بينما يرى نفسه،وهو الشاعر المجيد،لا تقدر مواهبه و هو يمنع عن أي منصب مرموق،ويحرم من التقرب إلى أصحاب المراتب العليا وكان ابن الرومي _ في كلَّ يوم _يتأكدله،أن عصره كان عصر اختلال وتفرّق،لايحقق الإنسان فيه مراده بقدرته وكفاءته،أوباحتياله عليهم،واتخاذ لسانه أداة تملّق يظهر عكس ما يبطن،تحقيقاً لمصالحه فثار على المجتمع المشبع بالنفاق والخديعة،وقام يشكو اختلال الزمان.

---

[1] - ابن الرومي فنه و نفسيته من خلال شعره،إيليا الحاوي،دار الكتاب اللبناني،1980م، ص 16.

[2] - ابن الرومي حياته من شعره ص 136.

[3] - السابق ص141.

لقد أشار ابن الرومي إلى انهيار القيم الحضارية والإنسانية في عصره،وسقوط المثل العليا بين أبناء وطنه فمراد ابن ارومي أن يسمو الإنسان بعلمه وعقله و فكره، وليس بمكره واحتياله ويوضع ذلك بنقمة لازعة ولسان شديد الوطأة.

المطلب الثاني:مظاهر الاغتراب في شعره:

حينما ننظر إلى شعره محاولين الكشف عن مظاهر اغترابه ووحدته،فإن قصائده الرثائيةلتفيض غربة وتفردا ووحدة،وقصيدته في رثاء أمه شاهد على ذلك، ففي كل بيت شجن، وحزن، وشعور أليم بالغربة:

أقولُ وقد قالوا أتبكي كفاقدٍ رضاعاً وأين الكهلُ من راضع الحلَمْ
هي الأُمُّ يا للنَّاسِ جُرِّعتُ ثُكْلَها ومن يبك أُمًّا لم تُذَم قَطُّ لا يُذَمْ[1]

ثم تأتي رثائيته الشهيرة يوم مات ولده محمد، وشعور الغربة المتنامي عنده يومئذ:

أقُرَّةَ عيني لو فَدَى الحَيُّ مَيِّتاً فَدَيْتُك بالحَوْبَاء أَوَّلَ من يَفْدِي
كأني ما اسْتَمْتَعتُ منك بنظْرة ولا قُبْلةٍ أحْلَى مَذَاقاً من الشَّهْدِ
كأني ما استمتعتُ منك بِضَمَّةٍ ولا شمَّةٍ في مَلْعبٍ لك أو مَهْدِ
ألامُ لما أُبْدي عليك من الأسى وإني لأخفي منه أضعاف ما أُبْدي
وأنتَ وإن أُفْرِدْتَ في دار وَحْشَةٍ فإني بدار الأنْسِ في وحْشة الفَرْدِ[2]

أرأيت قوله:"فإني بدار الأنس في وحشة الفرد"؟إنه شعور قاس بالغربة حتى وإن كان حيا في دار الأنس.لقد أجاد في الرثاء وجدد فيه،صورا ومعان،واقترب به إلى الوجدان والصدق،وأثرت الأحداث المريرة في والأخزان المتتالية عليه في زيادة هذا الشعور:

ومن يلقَ ما لاقيتُ في كل مجتنىً من الشوك يزهدْ في الثمار الأطايبِ
أذاقتنيَ الأسفارُ ما كَرَّه الغِنَى إليَّ وأغراني برفض المطالبِ
ومِنْ نكبةٍ لاقيتُها بعد نكبةٍ رَهِبتُ اعتساف الأرضِ ذاتِ المناكبِ
وصبري على الإقتار أيسرُ مَحْملاً عليَّ مِنَ التغرير بعد التجاربِ[3]

إن ابن الرومي في هذه الأبيات يبدو عليه اليأس، والشعور بالعزلة والاستسلام للفقر الذي جعله ينحو هذا المنحى،وهو المعروف عنه إسرافه ونهمه للطعام.

ومن مظاهر اغترابه أنه لم يستطع أن يتعايش مع ممدوحيه، ولعل السبب في ذلك ما ذكره المرزباني في أن خوف الممدوحين من انقلابه هاجيا كان سببا في ابتعادهم عنه،إضافة إلى عدوانيته وتقلب مزاجه.[4]

ومهما تعددت الأسباب في ذلك،فإن ابن الرومي كان يرى نفسه أعلى من ممدوحيه عقلا وثقافة.يقول:

رأى القومُ لي فضلاً يعاديه نقصُهُمْ فمالوا إلى ذي النقص والشكلُ أقربُ
خفافيشُ أعشاها نهارٌ بضوئه ولاءَمَها قِطْعٌ من الليل غَيهبُ
بهائمُ لا تُصغي إلى شَدْوِ مَعْبدٍ وأمَّا على جافي الحُداءِ فتَطربُ[1]

---

[1] - ديوان ابن الرومي 230/6.
[2] - ديوان ابن الرومي 627/2.
[3] - ديوان ابن الرومي214/1.
[4] - ابن الرومي،حياته من شعره،ص156.

ومنمظاهر اغترابه شكوى الزمان الذي انقلبت موازينه فيقول:

ورعاعٌ تغلَّبوا بزمانٍ أنا فيه وفيهُم ذو اغترابِ
غلبوني به على كل حظٍّ غيرَ حظٍّ يفوتُ كلَّ اغتصابِ[2]

لكنه يعزي نفسه،ويحاول أن يخفف من مصيبته في هذا الزمان المنقلب، فيزعم أنه من الشرفاء الذين قسى عليهم الدهر،فما دام شريفا،فلابد أن يعاني ما يعانيه الشرفاء فيقول:

دهرٌ علا قدرُ الوضيع به وهوى الشريف يحطُّهُ شرَفُهْ
كالبحر يرسب فيه لؤلؤُهُ سفلاً وتطفو فوقه جيَفُهْ[3]

كذلك من مظاهر إحساسه بالاغتراب نفوره من كل شيء قبيح، حتى ولو كان هو، فلا يتورع من السخرية بصورته إذا وقف أمام المرآة ونفر من شكله:

جزى اللَّه عني قبحَ وجهي سعادةً كما قد جزاهُ والإله قديرُ
ذَعَرْتُ به قوماً فأذَّوا إتاوةً كأني عليهم عند ذاك أمير[4]

ويغشى أحد مجالس الممدوحين طالبا الأنس فيزعجه صوت مغنية قبيح، فيعبر عن امتعاضه من صوتها:

كنت عند الأمير عيسى بن هارو نَ وفَهمٌ وذاك في تموزِ
فتغنّتْ فهزَّني القرُّ حتى خلت أني في وسْط برد العجوز[5]

فصوتها لبرودته جعله يشعر بالبرد الشديد على الرغم من أنه في أكثر شهور السنة حرارة.

وشعر ابن الرومي في السخرية هو فن التعبير عن لحظة توتر وسخط وكراهية، وصراخ في وجه الضحية،وهو يعتمد وصف الأشياء بمبالغة عبر تقنية التكبير والتضخيم،والإتيان بأوصاف عجيبة تدعو إلى التقزز والاشمئزاز والضحك من الموصوف، والخط من قدره وقيمته الإنسانية التي يختزلها الوصف الكاريكاتوري للشاعر في غيب(أو عيوب) جسمي أو معنوي.فها هو يشاهد مجموعة من العميان يتحدثون فيسيئه منظرهم، وبدلا من أن يظهر شغفه عليهم ،يصفه بقوله:

مجالسة العُمْي تُعْدي العمى فلا تَشهدنَّ لهمُ مَشْهدا
فإن أنت شاهدْتَهم مرةً فكن مِنهُمُ الأبعد الأبعدا
بحيث تفوتُ إشاراتهمْ وإلّا فإنك منهم غدا[6]

وينظر إلى امرأة سوداء فلا يعجبه منظرها فيسخر قائلا:

هي سوداءُ غيرَ أنَّ عليها ظُلمةً تَذْلهمُّ منها القلوبُ
فتراها كأنها حين تبدو عِظْلِمٌ فوق صَدرها مَصبوبُ[7]

---

[1] - ديوان ابن الرومي155/1.
[2] - ديوان ابن الرومي 280/1.
[3] -السابق1571/4.
[4] - السابق1093/3.
[5] - السابق.
[6] - ديوان ابن الرومي 1128/3.
[7] - السابق 690/2.

ولعل ابن الرومي في هجائه هذا كان ينشد الكمال،وإذا ما تجاوزنا الجانب الأخلاقي في تقويم شعر ابن الرومي،فإننا لا نختلف في الحكم بانسياب شعره انسيابا خاصا، بذوق رفيع ، وقد عبر شعره عن الحياة العباسية بكل تناقضاتها ومظاهرها،وقد مثلها شعره الساخر أفضل تمثيل،وفي زعمي المتواضع أنه لولا خروجه عن اللياقة الأخلاقيةلوجد ابن الرومي مكانه ضمن فطاحل الشعر العربي في كتب النقد والتراجم التي ذكرته على استحياء،ولملأ بدوره الدنيا وشغل الناس.

الخاتمة..

وبعد، فقد حاول هذا البحث أن يستنطق الاغتراب في شعر ابن الرومي وحياته من خلال دراسة شعره،التي اعتمدت على المنهج الوصفي التحليلي التكاملي،الجامع لمحاسن المناهج الأخرى،كما اعتمدت على الجانب النفسي الذي حاول جاهدا تفسير هذه الظاهرة، ألا وهي ظاهرة الاغتراب، وقد أسفر البحث عن عدة نتائج أهمها:

1- ظاهرة الاغتراب،ظاهرة اجتماعية ،لها عوامل نفسية، وبيئية، تجعل من الشاعر مغتربا،دفعه اغترابه أن يتخذ مكانا شرقيا من أهله.
2- حاول البحث بيان معنى الاغتراب في اللغة بالرجوع إلى السديم المعجمي،ومن خلال البحث في بعض المراجع التراثية والحديثة التي تطرقت إلى توضيح هذا المعنى من خلال عدة مفاهيم قد تم التركيز عليها،كالمفهوم النفسي للغربة والاغتراب.
3- لاحظ البحث أن هناك ارتباطا بين المعنى المعجمي لمصطلح الغربة والاغتراب،والمعاني التي توصل إليها في تلك المفاهيم مع وجود اختلاف للأسباب والعوامل التي دعت إلى الغربة والاغتراب.
4- كشف البحث عن أهم الموضوعات التي تدور في فلك الاغتراب والغربة عند ابن الرومي،التي انعكست في الاغتراب النفسي والغربة بأنواعها،والمتمثلة في الغربة السياسية،والغربة المكانية،والغربة الاجتماعية،التي شملت غربة الناس، وغربة الأصدقاء،وغربة الأهل والأقرباء.
5- تفاوتت الروايات في نهاية ابن الرومي،وأشهرها أنه مات مسموما، وهي رواية ابن خلكان،وأكد البحث على أن هذه الرواية فيها نظر،كما رجح البحث أن سبب موته علة تحركت فيه فمات بها.
6- عاش ابن الرومي عصرا مضطربا،سياسيا، واجتماعيا، لكنه مستقر حضاريا وثقافيا.
7- اختار ابن الرومي لتفسه نغمة شعرية خاصة ميزته هي نغمة"السخرية" فكان يستعين بها لتكون ملاذه حين يريد الهروب والفرار من هذا الواقع.
8- ساهمت في بناء جدار الاغتراب عند ابن الرومي عدة مؤثرات منها ما يتعلق ببيئته وعصره،ومنها ما يتعلق بشخصيته جسما ونفسا.
9- تبدت مظاهر الاغتراب في شعره خاصة المراثي،والهجاء،والسخرية،والمدح.
10- لم يستطع ابن الرومي أن يتعايش مع ممدوحيه بسبب خوفهم من انقلابه هاجيا لهم.
11- إن ابن الرومي في هجائه لأصحاب العاهات كان ينشد الكمال.

12- وإذا ما تجاوزنا الجانب الأخلاقي في تقويم شعر ابن الرومي،فإننا لا نختلف في الحكم بانسياب شعره انسيابا خاصا، بذوق رفيع ، وقد عبر شعره عن الحياة العباسية بكل تناقضاتها ومظاهرها،وقد مثلها شعره الساخر أفضل تمثيل.

المصادر والمراجع

أولا الكتب:

- ابن الرومي فنه و نفسيته من خلال شعره،إيليا الحاوي،دار الكتاب اللبناني،1980م.
- ابن الرومي (طائر غرّد خارج سر به)، عاصم جنيدي،الطبعة الأولى،دار الميسرة ،بيروت
- ابن الرومي، حياته من شعره.مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.القاهرة 2012م.
- اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، قحطان رشيد التميمي،دار المسيرة،بيروت.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة،بيروت،ط رابعة 1974م،ط خامسة 1981م.
- الغربة والحنين في الشعر الأندلسي ،فاطمة طحطح .
- الكامل في التاريخ ،المبرد،ط بولاق1274هـ.
- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء:الإمام أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني،تحقيق علي البجاوي،دار النهضة،مصر،القاهرة 1965م.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه،أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني ،تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي،مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- حصاد الهشيم،عبد القادر المازني،1999م.طبعة خاصة من دار المعارف لمكتبة الأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب. ص 280.
- ديوان ابن الرومي من الخفيف، شرح الأستاذ أحمد حسن بسج،دار الكتب العلمية،لبنان بيروت.ط الثالثة،2002م.
- زهر الآداب وثمر الألباب،أبو إسحاق علي الحصري القيرواني.تحقيق د.زكي مبارك،زاد في شرحه الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد،نشر مكتبة المحتسب،عمان،دار الجيل،بيروت،ط رابعة 1972م.
- لسان العرب،ابن منظور، دار صادر بيروت.مادة"غرب".
- مروج الذهب ومعادن الجوهر.المسعودي- القاهرة 1346هـ.
- مروج الذهب، أبو الحسن علي المسعودي،القاهرة،1346ه.
- معجم الشعراء،للإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران:المرزباني.تحقيق عبد الستار أحمد فراج-دار الكتب العربية،ط 1960.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي،تحقيق: إحسان عباس،الناشر: دار صادر – بيروت.

ثانيا: الصحف والدوريات

- الاغتراب في الأدب العبري المعاصر،أحمد حماد،عالم الفكر،مجلد24،ع 1996م.
- حول الاغتراب الكافكاوي، إبراهيم محمود،مجلة عالم الفكر، العدد 1984،3م.
- المؤثرات البيئية والشخصية في شعر ابن الرومي،محمد عبد القادر أشقر،التراث العربي-سوريا،مجلد 25،ع 100، 99، سنة النشر 2005.